آراء في تعاقب المعاني على حرف الجرّ (إلى) في القرآن الكريم دراسة لغوية

د٠ محمد توفيق عبد المحسن /كلية الآداب .قسم اللغة العربية

المقدمة :

الحمدُ لله واسع العطاء ، ناشر النعماء ، منزّل القرآن حاوياً كلّ البيان لا يدانى ،وصلاته وسلامه الدائمين على خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم ٠

فأنَّ الباحث في القرآن الكريم ليجد من الرهبة ما يمنعه الجرأة في تأويل معانيه ، خشية الوقوع في الخطأ أو تجاوز القَدْر ، فأسأل الله السلامة من الزيغ والهداية لما فيه الصواب .

وفي الأخبار المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما يدعو إلى التفكير في دقائق معانيه ومنها ما أخرجه ابن سعد (٢٣٠هـ) في طبقاته ، أنّ أبا الدرداء[١] رضي الله عنه كان يقول : " إنك لن تفقه كلّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً " [٢] .

وما سبب تعدد الوجوه وتباين المعاني إلا لأنَّ مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنيٌّ أكثرها على معاني حروفه ومعرفة جملتها وتفصيلها ، وهي مع قلتها وتيسر الوقوف على جملتها قد كثر دورها وبعد غورها ، فعزّت على الأذهان معانيها ، وأبتِ الإذعان إلا لمن يعانيها[٣] .

وكنت سمعت وقرأت الكثير عن تعدد معاني حروف الجر ، ونيابةِ بعضِها عن بعض حتى غدا بعضُها بموقعه دالاً على عامة ما سواه من الحروف . لكنّي بعد طول ألفة وحُسن مصاحبة لموقعها في القرآن الكريم كنت توّاقاً إلى تحري الحقيقة في قضية خلطها خلاف قديم وصحبها نزاعٌ قديم .

وبعد تتبعي لجميع مواضيع الإنابة التي أشار إليها القدامى في القرآن الكريم حاولت تعقبها موضعاً موضعاً وحرفاً حرفاً وفي البحث هذا متابعة لدلالات التعاقب في حرف الجر (إلى) مقتصداً في الإشارة إلى مواطن الشعر التي جعلت شواهدَ لما عليه آي الذكر الحكيم .

وكان لزاماً عليَّ أنْ أُقدمَ تمهيداً أعرض فيه بإيجاز خلاصةَ آراء القدامى والمحدثين في قضية التعاقب والإنابة سائلاً العلي القدير أنْ يُلهمَني الرشدَ والسدادَ .

تمهيد :

من الأمور التي أولاها القدامى اهتماماً خاصاً وأفردوا لها أبواباً قضيةُ نيابة الحروف أو التضمين ، وهما موضوعان وليسا موضوعاً واحداً ، فالتضمين عبارة عن : تضمن حرف من الحروف معنى حرفٍ آخرَ بحيث يستعمل مكانه وينوب عنه مع قرينة تحويلية أو حالية تشير إلى المعنى الذي استعمل[٤] . ولما كان الحرف لا يستقل بنفسه في الدلالة ولا بد له من متعلق تظهر دلالته فيه ارتبط بأخويهِ الاسم والفعل لإظهار معناه٠

أمّا الإنابة : فهي أن يصلح مجيء معنى حرف بدل المعنى الأصلي نائباً عنه في أداء معناه من دون دليل عدا صلاح المعنى لذلك . وكان في ذلك شيء من الريبة نتج عنها اختلاف في الرأي بين عموم أهل اللغة وأهل التفسير .

فالبصريون يرون أنَّ لكلّ حرفٍ معنىً حقيقياً واحداً ، وعليه فهم يمنعون نيابة بعض الحروف عن بعضها ، أما الكوفيون فيجيزون النيابة قياساً ويجعلون للحرف الواحد أكثرَ من معنى[٥] .

وإذا فصّلنا القول وجدنا الخليل (١٧٠هـ) وسيبويه (١٨٠هـ) أهل البصرة لا يقولان بالإنابة[٦] ، فمثلاً يذهب سيبويه والمحققون من أهل البصرة إلى أنّ (في) لا تكون إلا للظرفية الحقيقية والمجازية ، وما أوهم خلاف ذلك ردّ بالتأويل إليه[٧] .

ويذهب المبرِّد (٢٨٥هـ) وابن السراج (٣١٦هـ) والأخفش الأصغر (٣١٥هـ) والسهيلي (٥٨٣هـ) وطائفةٌ من حُذّاق البصرة إلى أن (مِن) لا تكون إلا لابتداء الغاية وأن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى[٨] . ونقل ابنُ السراج جواز وقوع الإنابةِ عند بعض العرب بشرط تقارب المعاني وعدم تبيانها[٩] . لكن بين هؤلاء الرافضين وجدنا ابنَ قتيبة (٢٦٧هـ) يعقد باباً بعنوان (دخول بعض الصفات مكان بعض) مجيزاً نيابة الحروف[١٠] . ثم يتوسع في (تأويل مشكل القرآن) فيعقد باباً خاصاً لحروف الصفات التي يقع بعضها موقعَ بعض[١١] .

وفي القرن الرابع الهجري يفرد ابنُ جني (٣٩٢هـ) فصلاً في (الخصائص) يعرض فيه لرأي القائلين بجواز النيابة مشككاً فيما يوردونه منها[١٢] .

أما الهروي (٤١٥هـ) فقد ضمَّنَ كتابه (الأزهية) فصلاً خَصَّهُ بحروفِ الصفات التي يقع بعضها موقع بعض[١٣] . وكذا فعل الثعالبي (٤٢٩هـ) في (فقه اللغة وسرّ العربية)[١٤] ، واستعرض ابنُ سيده (٤٥٨هـ) في المخصص في فَصْل (حروف المعاني)[١٥] نيابة كثيرٍ من حروف الجر عن بعضها موافقاً الكوفيين .

و تابع ابنُ مالك (٦٧٢هـ) الكوفيين وسار على هداه ابنُ عقيل في شرحهِ[١٦] .

أمّا أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) فينكر إنكاراً صريحاً إنابةَ الحروف قائلاً : " ولا حجة في شيءٍ من ذلك " [١٧] .

وللمرادي (٧٤٩هـ) وقفاتٌ في كتابه تبيِّن عدم تبنِّيه الفكر القائل بتعدد المعاني فهو يؤكد من حينٍ إلى آخرَ ؛ أن الحرف لهُ معنىً أصيلاً لا يفارقه وقد تصحبه معانٍ أُخرُ راجعةٌ إلى الاختصاص[١٨] . وفي حرف الباء يقول : " وقد ذهب المبرِّد وابنُ السرّاج والأخفش الأصغر وطائفة من الحُذّق إلى أنها لا تكون إلا لابتداء الغاية وأنّ سائرَ المعاني التي ذكروها راجعٌ إلى هذا المعنى " [١٩] . لكنه يُبدي ارتياحه لتعددها فيقول : " والصحيح التنويع " [٢٠] .

ومن المتأخرين نجد ابنَ هشام (٧٦١هـ) يميل إلى الكوفيين فيصفهم بأنهم أقلُّ تعسفاً في هذا الباب[٢١] . والذي عليه جمهور النحويين أنّ الحروف باقيةٌ على ما وُضعت عليه أصلاً ولا ينوب بعضها عن بعض فإنْ ورد في كلام العرب أو في القرآن الكريم ما يوهم نيابة حرف عن حرف في المعنى فإنّه محمولٌ على واحدٍ من ثلاثة أشياء هي على مذهب البصريين :

١. تأويل المعنى تأويلاً يقبله اللفظ[٢٢] ، على سبيل المجاز والاستعارة[٢٣] .
٢. تضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف[٢٤] .
٣. شذوذ إنابة كلمة عن أخرى إذا لم يمكن تطبيق الاستعارة أو الامتناع في الاستعمال ، فيوضع أحد الحرفين موضع الآخر على سبيل الشذوذ[٢٥] .

والشذوذ حالة نادرة يجب أنْ لا تعممَ فما سمع فيه ذلك جعل شاذاً لا يقاس عليه . وبناءً عليه فإذا ثبت أنّ كلّ ما ورد في القرآن الكريم من حروف يمكن توجيهه على أساس المجاز أو المعنى الأصلي المقصود لغرض بلاغي فغيره من الأشعار إنما يحتمل الوهم والخطأ والشذوذ والضرورة .

ولأهل التفسير مواقفُ أخرى أقربُها إلى الحقيقة موقف الإمام الطبري (٣١٠هـ) في معرض كلامه عن قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ (هود:٦١) . فهو يقول : " إنّ لكلّ حرفٍ من حروف المعاني وجهاً هو أولى من غيرهِ ، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيرهِ إلا بحجة التسليم لها " [٢٦] . وقد أفاض الرازي في كون (من) في الآية بمعنى (في) ونبّه إلى عدم وجود مسوغ لذلك[٢٧] . وعلينا أنْ نتعلمَ يقيناً أنّ التعبير في القرآن الكريم

بقدر المعنى ، وكل حرف معجز في موضعهِ واختياره وليس الترادف والاشتباه والتوسع إلا في خدمة ذلك .

أمّا البلاغيون والأصوليون[٢٨] فقد رجحوا وقوعَ المجاز في الحروف واستعارة بعضها للدلالة على بعض ، مع ما ضمت إليه ، وسمَّوا مجازَها مجازَ تركيب[٢٩] . لأنَّ الحرف عندهم هو ما دلَّ على معنى في غيره[٣٠] ، ولا يستقل بنفسه في الدلالة[٣١] .

ولو عرجنا على رأي المحدثين في هذه القضية نجد منهم المندفع في تأييد نيابة الحروف اندفاعاً لا يعرف الحدود في حين يرفض آخرون ذلك رفضاً قاطعاً ، فنجد مثلاً عباس حسن ينظر إلى المذهب الكوفي في النيابة بإجلال واضح[٣٢] ، في حين يبطل النيابة الدكتور محمد حسن عواد فيقول : " المسألة تحتمل وجهاً من الوجهين : إمّا أنْ يكون ذلك موقوفاً على السماع ، وإمّا أن يكون الحرف في الأصل موضوعاً لمعنى واحد ثم وقع من معنى الآخر وقوعاً مجازياً كالذي نجده عند البيانيين ، فإن كان الأول بطل القول بالنيابة . قياساً ، وإن كان الثاني بطل القول بأن الحرف الواحد يؤدي عدة معانٍ تأدية حقيقية ..."[٣٣].

ومنهم من ذهب إلى أنّ من خصائص العربية وميزاتها على غيرها من لغات العالم تعددَ معاني حروفها ، وأن ذلك ممكنٌ لأسرار العربية ومبعث لجمالها[٣٤] .

أمّا الدكتور هادي عطية فبرَّز في بحثهِ (بيان طبيعة الحروف العاملة في القرآن الكريم) سر المخالفة بين حروف الجر مما استعرضه الأصوليون والمفسرون وبيّنوا فيه رفضَهم للتعاقب والإنابة[٣٥] .

وأيّاً كانت وجهة نظر القدامى أو المحدثين فإنّنا في هذا البحث نحاول التوصلَ إلى رأي في هذه القضية لعله يكون مدخلاً لبحثٍ جديد .

حقيقة التعاقب والتناوب في حرف الجر (إلى) آراء نقدية إحصائية :

عند النحاة أن (إلى) حرف جرّ لبيان انتهاء الغاية في الزمان والمكان وهو أصل معانيه عندهم[٣٦] . ويذهب بعضهم إلى أنه يأتي بمعنى (الباء) قياساً على أبياتٍ وردت للنابغة ولكُثَيِّر[٣٧] ، ردّها وضعّفها أبو حيان[٣٨] . والبعض الآخر يذهب إلى أنه بمعنى (في) وبخاصة في بيت النابغة الذي يقول فيه :

فــلا تَتركنـــي بالوَعيـــد كـــأنّني إلــى النــاسِ مطلــيٌّ بــهِ القــار أجــربُ

أي : في الناس ، وتباينت آراء آخرين بين الحذف والتأويل والتضمين بعد أن رفضوا تقديره بمعنى في[٣٩] .

ثم عرضوا للقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى** ﴾ (النازعات:١٨) . فقالوا : هو بمعنى (في أن تزكى) وردّ ذلك ابنُ عصفور (٦٦٣هـ) وغيره وتأولوا الآية بمعنى : أدعوك إلى أن تزكى[٤٠] ، أو هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك[٤١] . وهذا التأويل يتناسب مع دلالة (إلى) الأصلية في الإشارة إلى الغاية ، لأن الخطاب كان موجهاً إلى فرعون بعد طغيانهِ فبعث الله تعالى إليه موسى عليه السلام متوجهاً بالدعوة سائلاً مستنكراً عليه : أما لهذا الطغيان من نهاية ؟ والغاية هي تزكية النفس المشار إليها بـ(إلى) ومن بديع المناسبات أنْ نجدَ الآياتِ الثلاث في السياق القرآني ترد بـ(إلى) جميعاً وهي :

﴿ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى**﴾ (النازعات:١٧،١٨،١٩) . ولابن جني (٣٩٢هـ) تعليق يقول فيه : إنك إنّما تقول : (هل لك

في كذا) إنْ قصدت الدعوةَ إلى العطاء ، أي هل لك في كذا شيء تأخذه ، أما هنا فلا ، لأنهُ دعاءٌ منه صلى الله عليه وسلم أي : أدعوك وأرشدك إلى أن تزكى)[٤٢].

ثم أن استعمال (في) يوحي بالإلزام والإكراه وعدم ترك الخيار للمخاطب في وقت ومكان ونوع العمل فهو أسلوب فيه شدة وقسر ، أما استعمال اللام فهو على العكس تماماً فيه الكثير من اللين والترضية ، وليس أدَلَّ على هذين الأمرين من أننا لا نجد في كتاب الله العزيز (هل) متلوة بـ(إلى) إلا في هذا الموضع ، وهو موضع اللين والدعوة ، ونجدها في موضع آخر منفردة أيضاً متلوة بـ(في) في قوله تعالى : ﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** ﴾ (الفجر:٥) . وهو موطن القسم المغلظ على العتاة الجبارين والانتقام القاسي الذي أصاب الأقوام السابقة .

ولم يغفل ذلك أبو السعود في تفسيره فهو ربط بين الخطاب في سورة (طه:٤٤) قوله تعالى : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ وبين آية النازعات فقال : " فقولا له قولاً ليناً لترتيب ما بعدها على طغيانهِ فإن تليين القول مما يكسر سَوْرَة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تعنفا في قولكما وقيل القول اللين مثل : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فإنها دعوة في صورة عرض ومشورة " [٤٣].

وفي سورة (النساء:٨٧) في قوله تعالى : ﴿ **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ تأولوا (إلى) بمعنى (في) على تقدير أن الكلام (في يوم القيامة)[٤٤] ، ولكن ماذا بعد الجمع ؟ إنّ الإشارة صريحة في نص الآية المتقدمة فالله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً . اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ (النساء:٨٦،٨٧) فقصد من الجمع الحساب وتأويل الآية ليجمعكم إلى حساب يوم القيامة[٤٥] ، والغاية هنا أوضح من أن يُشار إليها ، نبه إليها أبو حيّان (٧٤٥هـ)[٤٦].

وبما أنّ (إلى) تفيد الغاية واللام تفيد الإشارة إلى الملك والسببية ولكل منهما اختصاصه واللام أكثر اختصاصاً من (إلى) وليس من البلاغة استخدام أحدهما بدل الآخر ، ولا حجة لمن ذهب إلى تقدير معنى (إلى) باللام في قوله تعالى : ﴿ **وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ** ﴾ (النمل:٣٣) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ (يونس:٢٥) . فصرح كثيرون إلى أنّ (إلى) لانتهاء الغاية على أصلها والمعنى : والأمر مُنتَهٍ إليك[٤٧] ، أو موكول إلى رأيك[٤٨] .

ومن المعاني التي أُلصقتْ بـ(إلى) مجيؤها بمعنى (مع) في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه** ﴾ (آل عمران:٥٢) . نقل فيها الفراء (٢٠٧هـ) عن المفسرين أنّها بمعنى (مع) وقال : " هو وجه حسن " [٤٩] وعلة ذلك أنها يراد بها ضمُّ الشيء إلى الشيء عندهم[٥٠].

وكأنّ دلالة (إلى) في النصّ القرآني صريحةٌ في الضمّ، لكن يبدو أن الميل إلى عدم إرادة الضم أظهر والله أعلم ، لأنَّ عيسى عليه السلام لمّا أحسَّ الكفرَ من قومه قال : مَن أنصاري ؟ أي الذين يتبعوني ويؤمنون بما آمنت به ، ولم يقصد إضافة نصرتهم إلى نصرة الله تعالى له ، فهو على يقين أنّ نُصرةَ الله تعالى تعلو كلَّ نصرة ومن كان الله ناصره لا يحتاج إلى نصرة غيرهِ . ولقد أحسن منْ تأول الكفر في الآية بالقتل فبين أنّ عيسى لمّا أحسَّ أنهم يبيتون له القتلَ ناداهم فقال : مَنْ منكم يكون من أتباعي ناصراً لدين الله ، قال الشوكاني (١٢٥٠هـ) في تفسير قوله تعالى ﴿ **إلى الله** ﴾ : " هو متعلق بمحذوف وقع حالاً أي متوجهاً إلى الله ، أو ملتجئاً إليه أو ذاهباً إليه ... وقيل المعنى من أنصاري في السبيل إلى الله " [٥١] ولنعلمْ أَنَّ في نصرة الله كفاية له من نصرة البشر وإنّما قصد من ينصرني مخلصاً النصر إلى الله ومخلصاً الاعتقاد إلى الله .

قال المرادي (٤٧٩هـ) : " (إلى) في هذا أبلغ من (مع) لأنّك لو قلت من ينصرني مع فلان ، لم يدل على أن فلاناً وحده ينصرك ولا بد ، بخلاف (إلى) فإن نصرة ما دخلت عليه محققة واقعة مجزوم بها " [٥٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ** ﴾ (النساء:٢). ذهب بعضهم إلى أنها بمعنى (مع أموالكم)[٥٣] ، فيكون معنى الآية وقوع الإتلاف على أموالهم وأموال اليتامى بالأكل والتصرف ، في حين أنّ المقصودَ لا تجمعوا أموالهم إلى أموالكم فتضموها بعضها إلى بعض ، فمعنى لا تأكلوا يدل على الإتلاف إنْ جعلت (إلى) بمعنى (مع) ويدل على الضمّ إنْ كانت دالةً على الغاية على أصل معناها . وعلى هذا جماعة من المفسرين ممن ذهبوا إلى أنّ المنهي عنه في هذه الآية هو الخلط فيكون الفعل مضمناً معنى الضمّ ، أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم[٥٤] . قال الفراء : " أي لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم ولا تقول مع أموالكم " [٥٥] والعرب تقول : (الذود إلى الذود إبلٌ)[٥٦] ، أي مضافاً إلى الذود . وذهب جماعةٌ إلى أنهُ يراد (مع الذود) ومثّلوا لذلك بقول ابنِ مُفَرِّغ[٥٧] :

شَـــدَخَتْ غُـــرَّة السَّـــوابق مـــنهم فـــي وجـــوهٍ إلـــى اللِّمـــامِ الجِعـــادِ

وهذا البيت ورد في أدب الكاتب ص٥١٨ بـ(إلى) ، وورد في لسان العرب في (لمم) بلفظ (مع اللِّمام) منسوباً وفي (شدخ) غير منسوب وهو برواية أخرى هي :

شَـــدَخَتْ غُـــرَّة السَّـــوابق مـــنهم فـــي وجـــوهٍ إلـــى الكِمـــامِ الجِعـــادِ

وليس من الضرورة أنْ تكونَ رواية (إلى) بمعنى (مع) .

ولهم شاهد آخر هو بيتٌ لامرئ القيس ورد الشطر الثاني منه مقدماً على الشطر الأول فهو في الأزهية :

إلـــى حـــارِكٍ مثـــل الغبـــيطِ المُـــذأَّبِ لـــه كَفَـــلٌ كالـــدِّعصِ لَبَّـــدَهُ الثـــرى

وقال بأن معناه ((مع حارِكٍ))[٥٨] ، وفي اللسان (ذيب) :

لـــه كَفَـــلٌ كالـــدِّعْصِ لَبَّـــدَهُ النَّـــدى إلـــى حـــارِكٍ مثـــلِ الغبـــيطِ المُـــذَأَّبِ

فأيهما أعْسَر قبولاً دلالة (إلى) في الشاهد ، أم جعل (إلى) بمعنى (مع) ؟ ولعل الباحث المدققَ يلمس توجيهاً معيناً وصرفاً مقصوداً لمعنى الحرف إلى معنى آخر تقف وراءه عوامل ودوافع اعتقادية وفقهية مذهبية تذكي مثل هذه المواقف اللغوية ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** ﴾ (المائدة:٦) ، فقد ذهب من أدخل المرافق في الغسل إلى أنّ (إلى) بمعنى (مع)[٥٩] أي مَعَ المرافق . ونحن نعلم أنَّ (إلى) تدل على الغاية سواء أ دخلت في الحكم أم لم تدخلْ ، وقد فصّل القول في ذلك ابنُ يعيش (٦٤٣هـ) والزركشي (٧٩٤هـ)[٦٠] ، وأنَّى لنا أنْ نجزمَ بتلك النيابة لإدخال الغاية . إنه أمرٌ غير منضبط وتأباهُ اللغة وليس فيه قياس فهل لنا أن نقول في (سرنا إلى بغدادَ) هي بمعنى مع بغداد ؟ ذلك هو المحال بعينه .

ومثل ما تقدم نجده في قوله تعالى : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُم** ﴾ (البقرة:١٨٧) . فبين (إلى ومع) فرقٌ واضح وإذا أردنا تحديد معنى (الرفث) وجدنا ابنَ عباس[٦١] رضي الله

الله عنهما يقول : " الدخول والتفشي والإفضاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع غير أنّ الله حييٌّ كريم يكني بما شاء عما يشاء " [٦٢] .

ونقل الزمخشري (٥٣٨هـ) : " رفث في كلامه وأرفث وتَرَفَّثَ أفحشَ وأفصح بما يجب أنْ يكنى عنه من ذكر النكاح ، وقد ترافث الرجلان ، ورافث صاحبه مرافثة ، .. ورفث إلى امرأته ، أفضى إليها ، وقيل الرفث بالفرْج : الجماع ، وباللسان : المواعدة للجماع ، وبالعين : الغمز للجماع " [٦٣] . فأصل الرفث موضوع للكلام الفاحش وكني به عن الجماع .

ومما تقدم نتبين أنَّ المقصود بالرفث مقدماته الداعية إليه وهي جميعاً دوافع من الرجل إلى المرأة بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ** ﴾ (البقرة:١٨٧) وقد تقدم الخطاب في الآية الكريمة إلى الرجال لأنهم كانوا يختانون أنفسهم وبما أنّ التشريكَ لم يكن مقصوداً في المباشرة ولا في الاختيان فهو غير مقصود في الرفث أيضاً ومن هنا تتحتم إرادة (إلى) بدلالة قصدها في الغاية ، ثم أن الإفضاء نوع من الرفث وفي معناه وأفضى لا يعدى إلا بـ(إلى)[٦٤] قال تعالى : ﴿ **وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ** ﴾ (النساء:٢١) ، ولمّا لم يعدِّها بغيره في الحروف لزم إرادة القصد القرآني باستعمال (إلى) دلالة ولفظاً لأنّ الاستعمال لهاتين اللفظتين لم يرد إلا مرة واحدة لكل لفظةٍ ، وصاحبهما (إلى) لا غير .

إنَّ مَن أراد جعل (إلى) بمعنى (مع) إنما قصد إلى معنى خبيثٍ قصد إشاعتهُ والدعوة إليه وهو التوسع في دلالة الرفث بين الطرفين والتخفف في أعذار ذلك الرفث من مسوغات للرجل والمرأة على حدّ سواء وجعله رخصة يشترك فيها الطرفان في حين أنّ شهر رمضان هو شهر الطاعة والعبادة والقيام والذكر وهو شهر تُسدل فيه الاستار على الشبهات وما يدعو إليها٠

ويترتب على التعاقب في المعاني والإنابة تغيير جسيم لمعاني كتاب الله العزيز التي أرادها في كتابه ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ** ﴾ (البقرة:١٤) فلقد تأول بعضهم (إلى) في الآية بالباء أو (مع) أي إذا خلَوا مع شياطينهم أو بشياطينهم[٦٥] ، وكان أبو حيّان صريحاً في إنكار ذلك قائلاً : " وزعم النضر بنُ شميل[٦٦] أنّ (إلى) هنا بمعنى (مع) أي خلَوا مع شياطينهم ، ... ولا حجة في شيء من ذلك ، وقيل (إلى) بمعنى الباء لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وهذا ضعيف " [٦٧] .

قال الزمخشري : " خلوت بفلان وإليه ومعه خلوة ، وخلا بنفسه : انفرد " [٦٨] .

لكن الفرق شاسع بين خلوة وخلوة فهناك خلوة مقصودة يتم السعي إليها وهناك خلوة توافق تحصل عرضاً وخلوة يسعى إليها طرفٌ دون غيره وهي أسوأ أنواع الخلوات وهؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم كانوا يسعون إلى إظهار الإيمان أمام المؤمنين وإظهار التأييد عند الكافرين فهم أبشع الفئات فهم يبحثون عن طرق إقناع الشياطين بما هم عليه وإن لم يتعرض الشياطين لهم ، فلو قال تعالى : (خلوا مع) لكانت الرغبة مشتركة بمعنى أنهم قد يكونون مدفوعين من شياطين الإنس أولئك ، وإن كانت (خلوا بشياطينهم) يكون العكس أنّ شياطينهم قصدوهم فخَلوا هم بهم والرغبة منهم لا من الشياطين أو من الجميع ، أما إنْ كان (خلوا إلى) فالقصد منهم والسعي منهم وهو أسوأ الأنواع لأن صفات الذمّ تجتمع فيهم حصراً لا غير وعليه فللنفاق دوافعه في نفس المنافق عقيدةً ورغبةً وسلوكاً وهو الذي استدعى الذمّ لأنهُ تعالى وصفهم في الآية التي تلتها بأنهم ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى** ﴾ (البقرة:١٦) و﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً** ﴾ (البقرة:١٧) فقال : اشتروا وقال : استوقد . وكل ذلك ينبه على السعي والرغبة والإرادة ولا يناسب كل ذلك إلا الحرف (إلى) الدال على الغاية . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا لَقُوا**

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة:٧٦) عند استواء الطرفين في الغاية والهدف والسعي فالنص هذا في الحوار بين فئتين من جنس واحد سعى كلّ منهما إلى ما يسعى إليه الآخر فناسب ذلك قوله تعالى : ﴿ **خلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ** ﴾ ، وعموماً فالغاية في دلالة (إلى) أصوب وأقرب إلى الحق وليس (الباء أو مع) بنافعٍ لذلك .

خلاصة البحث :

من هنا نتبين أنّ دلالةَ الحروف على المعاني الظاهرة قد تكون مقصودة في كل موضع وضعت فيه في النص القرآني ، فهي على ظاهرها ، وهي بظاهرها أقوى دلالة وأكثر دقة . وأَنَّ التعبير القرآني روعي فيه أنْ يكون اللفظ مقصوداً في موضعه بمعناه وأنَّ التأويل والإنابة والتضمين والتعاقب مسميات قد تصلح في اللغة لكنها لا تصلح لكتاب الله العزيز ولا تخدم التعبير القرآني في أيّ نصٍّ كان الخدمةَ التي يؤديها المعنى الأصلي ، فالتضييق في هذا الباب مرغوب فيه والتوسع مرغوب عنه والله تعالى أعلم .

. الهوامش .

(١) عويمر بن مالك الأنصاري ، توفي (٣٢هـ) صحابي شجاع حكيم جمع القرآن حفظاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . الأعلام : ٥/ ٢٨١ .
(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد : ٢/ ٣٥٧ .
(٣) يُنظر : الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي : ٨١ .
(٤) ينظر في ذلك : مغني اللبيب ، لابن هشام : ١٥٠ – ١٥١ ، الاشباه والنظائر في النحو ، السيوطي : ١/ ١٠١ .
(٥) ينظر في ذلك : الاقتضاب ، لابن السيد البطليوسي : ٢٣٩ ، الجنى الداني : ١٠٨-١٠٩ ، مغني اللبيب: ١١٩ ، همع الهوامع ، للسيوطي : ٢/ ٣٥ .
(٦) البحر المحيط ، أبو حيّان : ١/ ٦٩ .
(٧) الجنى الداني : ٢٦٨ .
(٨) المصدر السابق : ٣١٩-٣٢٠ .
(٩) الأصول في النحو : ١/ ٣٣١ .
(١٠) أدب الكاتب : ٥٣٦-٥٤٩ .
(١١) ٥٦٥ وما بعدها .
(١٢) الخصائص : ٢/ ٣٠٧ .
(١٣) ٢/ ٣٠٦ وما بعدها .
(١٤) ٣٣٢-٣٣٦ .
(١٥) المخصص : ١٤/ ٤٤ .
(١٦) شرح ابن عقيل : ٢/ ١٥ .
(١٧) البحر المحيط : ١٠/ ٦٨-٦٩ .
(١٨) الجنى الداني : ١٩ .
(١٩) نفسه : ٣١٥-٣١٦ .
(٢٠) نفسه : ٣٦ .
(٢١) مغني اللبيب : ١٥١ .
(٢٢) الجنى الداني : ١٩ .
(٢٣) المزهر : ١/ ٣٦٠ .
(٢٤) الجنى الداني : ١٠٩ ، مغني اللبيب : ١٥١ .
(٢٥) الجنى الداني : ١٠٩ .

(٢٦) جامع البيان : ١/ ٢٩٩ .
(٢٧) مفاتيح الغيب : ١٨/ ١٨ .
(٢٨) يُنظر : مفتاح العلوم : ٦١١ ، الأصول ، السرخسي : ١/ ٢١٨-٢٢٢ .
(٢٩) المزهر : ١/ ٣٦٠ .
(٣٠) الصاحبي في فقه اللغة : ٨٦ ، المخصص : ١/ ٤٤ ، مفتاح العلوم : ٦١١ ، احكام الآمدي : ١/ ٨٥ ، شرح الكافية:١/ ٩،الأشباه والنظائر في النحو: ٣/ ٢،المزهر: ١/ ٣٦٠،مسلم الثبوت: ١/١٧٠ .
(٣١) الطراز : ٢/ ٥٣ .
(٣٢) النحو الوافي : ٢/ ٥١٤ .
(٣٣) تناوب حروف الجر في القرآن الكريم : ١٣-٢٠ .
(٣٤) دراسة في حروف المعاني الزائدة ، عباس محمد السامرائي : ١ .
(٣٥) ص١٥٣ ، ع/ ٤ مجلة لكلية التربية -جامعة البصرة .
(٣٦) الجنى الداني : ٣٧٣ ، وينظر : شرح المفصل ، ابن يعيش : ٨/ ١٣ .
(٣٧) كثير بن عبد الرحمن الخزاعي (١٥٠هـ) شاعر عاشق يُعرف بكثير عزّة . الأعلام ٦/ ٧٢ .
(٣٨) البحر المحيط : ١/ ٦٨،٦٩ ، والأزهية : ٢٨٤ .
(٣٩) يُنظر : : الأزهية : ٢٨٣ ، البحر المحيط : ٣/ ٣١٢ ، الجنى الداني : ٣٧٨،٣٨٨ ، مغني اللبيب : ١٠٥ ، الأشموني : ٢/ ٢٨٩ .
(٤٠) الجنى الداني : ٣٧٥ ، البرهان في علوم القرآن : ٤/ ٢٣٤ .
(٤١) فتح القدير : ٥/ ٣٦٥ .
(٤٢) الخصائص : ٢/ ٣٠٩-٣١٠ .
(٤٣) تفسير أبو السعود : ٦/ ١٧ .
(٤٤) تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم : ٨٦ .
(٤٥) فتح القدير : ٤٥٦ .
(٤٦) البحر المحيط : ٣/ ٣١٢ .
(٤٧) الجنى الداني : ٣٧٤ ، البرهان : ٤/ ٢٣٣ .
(٤٨) فتح القدير : ٤/ ١٣٣ .
(٤٩) معاني القرآن : ١/ ٢١٨ ، وينظر تأويل مشكل القرآن : ٤٢٩ .
(٥٠) الجنى الداني : ٣٧٣ ، البرهان ٤/ ٢٣٣ .
(٥١) فتح القدير : ١/ ٣١٣ .
(٥٢) الجنى الداني : ٣٧٤ .
(٥٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٢٩ .
(٥٤) يُنظر : فتح القدير : ١/ ٣٨٤ .
(٥٥) معاني القرآن : ١/ ٢١٨ .
(٥٦) المثل من اللسان (ذود) ، ويُنظر : مغني اللبيب : ١٠٤ ، ومجمع الأمثال : ١/ ٢٨٨ ، يضرب في اجتماع القليل إلى القليل حتى يؤدي إلى الكثير ، والذود : القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع .
(٥٧) تأويل مشكل القرآن : ٤٢٨،٤٢٩ .
(٥٨) الأزهية : ٢٨٣ .
(٥٩) شرح المفصل : ٨/ ١٣،١٤ ، وينظر : تناوب حروف الجر : ٨٧ .
(٦٠) يُنظر : شرح المفصل : ٨/ ١٥ ، والبرهان : ٤/ ٢٣٣ .
(٦١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (٦٨هـ) صحابي جليل عالم في الفقه ولأنساب . الأعلام ٤/ ٢٢٨ .
(٦٢) فتح القدير : ١/ ١٦٤ .
(٦٣) أساس البلاغة (رفث) .

([٦٤]) يُنظر : الخصائص : ٢/ ٣٠٨ ، ومعترك الأقران : ١/ ٢٦٣ .
([٦٥]) يُنظر : البرهان : ٤/ ٢٣٣ .
([٦٦]) أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة بن كلثوم البصري (٢٠٤هـ) أخذ عن الخليل وصنف في غريب الحديث . الأعلام : ٨/ ٣٥٧ .
([٦٧]) البحر المحيط : ١/ ٦٨-٦٩ .
([٦٨]) أساس البلاغة : ١/ ٢٤٩ .

. المصادر والمراجع .

١. الاحكام في أصول الاحكام ، الآمدي ، مطبعة الاتحاد العربي ، مصر ، ١٩٦٨م .
٢. أدب الكاتب ، ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، ط٣ .
٣. الأزهية في علم الحروف ، علي بن محمد الهروي (٤١٥ هـ) تحقيق : عبد المعين الملوحي ، دمشق ، ١٩٧١م .
٤. أساس البلاغة ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
٥. الأشباه والنظائر في النحو ، جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ، ط٢ ، حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ .
٦. الأصول في الفقه ، أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي (٤٩٠ هـ) ، تحقيق : أبو الوفا ، مطابع دار الكتاب بمصر ، ١٩٥٤م .
٧. الأصول في النحو ، أبو بكر السرّاج (٣٦٠ هـ) تحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٣م .
٨. الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط٣ .
٩. الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب ، ابن السيد البطليوسي (٥٢١ هـ) بيروت ، ١٩٢٧م .
١٠. الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧ هـ) تحقيق : مازن المبارك ، ط١ ، ١٩٧٤م .
١١. البحر المحيط ، أبو حيان (٧٤٥ هـ) الرياض ، أوفست .
١٢. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) .
١٣. تأويل مشكل القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) شرح وتحقيق : السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتاب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .
١٤. التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني (٣٦٠ هـ) مصطفى البابي الحلبي وشركاه .
١٥. تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم)، محمد بن محمد العمادي (٩٥١ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٦. تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم ، د. محمد حسن عواد ، دار الفرقان ، عمان ط١ ، ١٩٨٢م .
١٧. جامع البيان ، محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المعارف بمصر .
١٨. الجنى الداني في حروف المعاني ، حسن بن قاسم المرادي (٧٤٩ هـ) تحقيق : طه محسن ، ١٩٧٥م .
١٩. الخصائص ، ابن جني (٣٩٢ هـ) تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ - ١٩٥٦م .
٢٠. دراسة في حروف المعاني الزائدة ، عباس محمد السامرائي ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٧م .
٢١. رصف المباني ، المالقي (٧٠٣ هـ) .

٢٢. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين بن عقيل (٦٧٢ هـ) تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ط١٥ ، ١٩٧٢م .
٢٣. شرح الأشموني على ابن عقيل ، الأشموني (٩٢٩ هـ) تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٥٥م .
٢٤. شرح الكافية ، رضي الدين الاستراباذي (٦٨٨ هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ط٢ ١٩٧٩م ، أوفست .
٢٥. شرح المفصل ، موفق الدين ابن يعيش (٦٤٣ هـ) ، نشر إدارة الطباعة الميزية بمصر
٢٦. الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) تحقيق : مصطفى الشويمي ، البدران للطباعة ، بيروت ، ١٩٦٣م .
٢٧. الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م .
٢٨. الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي ، تحقيق : سيد بن علي المرصفي ، مطبعة السنة المحمدية ، مصر .
٢٩. فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ) مصطفى البابي الحلبي .
٣٠. فقه اللغة وسر العربية ، الثعالبي (٤٢٩ هـ) .
٣١. الفوائد الضيائية ، شرح كافية ابن الحاجب للجامي ، بغداد ، وزارة الأوقاف ١٩٨٤م .
٣٢. لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور (٧١١ هـ) طبعة بولاق
٣٣. مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني (٥١٨ هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، المكتبة التجارية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٩م .
٣٤. المخصص ، ابن سيده (٤٥٨ هـ) المكتب التجاري للطباعة ، بيروت ، أوفست
٣٥. المزهر في علوم اللغة ، جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
٣٦. مسلم الثبوت ، محب الله بن عبد الشكور (١١١٩ هـ) بنظر فواتح الرحموت ، أوفست بغداد ، المثنى .
٣٧. معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء (٢٠٧ هـ) تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، مصورة ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠م .
٣٨. مغني البيب ، جمال الدين ابن هشام (٧٦١ هـ) ، تحقيق : د. مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٢م .
٣٩. مفاتيح الغيب ، أو التفسير الكبير ، محمد بن عمر فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) دار الكتب العلمية ، طهران ، ط٢ .
٤٠. مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكير السكاكي (٦٢٦ هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط١ ، ١٩٣٧م .
٤١. النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، ط٥ ، ١٩٧٥م .
٤٢. همع الهوامع ، جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، وعبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية ، كويت ، ١٩٧٥ - ١٩٧٧م .
. المجلات والدوريات . بيان طبيعة الحروف العاملة في القرآن الكريم ، د. هادي عطية ، مجلة كلية التربية ، جامعة البصرة ، العدد (٤) لسنة ١٩٧٧م .